Journal of Analytic Divinity
International Refereed Journal
Cilt/Vol: 3, Sayı/Issue: 2, 2019, ss/pp.101-122.
Geliş tarihi: Mayıs 2019
Kabul tarihi: Eyül 2019

ISSN:2602-3792

ANKARA-TURKEY.
This article was checked by iThenticate.

Analytic Divinity Center
www.andcenter.org

KUR'AN-I KERİM VE HZ. PEYGAMBER'İN HADİSLERİNDEKİ NEFSÂNÎ HİTÂP

Aydın KUDAT* & Amir BARADAY**

ÖZET

Kur'an-ı Kerim ve Hz. Peygamber'in hadislerindeki hitap, insana dönüktür. Bütünüyle insanoğlunun yararına olan bu hitap, onun hayatının bütün yönlerini kapsamaktadır. Dolayısıyla ona bir hayat modeli çizer. Bu hayat modeliyle hak ve sorumluluklarının bilincinde olur. Kendi nefsine karşı, yaratıcısına karşı, insan ve doğa bütün çevresine karşı olan ilişkisi buna göre düzenler. Kur'an-ı Kerim ve hadis-i şeriflerin riayet ettiği ilk husus ve hareket noktasını teşkil eden birinci basamak inancından başlamak suretiyle insanın duygu ve hissiyatına ulaşarak, onu içeriden ıslah etmek olduğu görülür. Zira insanın ıslahı önce içerden başlar, oradan dışa doğru hal ve davranışlarında tezahür eder.

Makalenin önemi, insanoğlunun bütün çeşitleriyle nefsanî boyutunu tasvir eden söz konusu hitaba ışık tutuyor olmasından kaynaklanmaktadır. Bu hitap, terbiye ve irşadı esnasında nefsin özelliklerini, eğilim ve duygularını dikkate alarak yönlendirmeye çalışır. Bunu yaparken de herhangi bir çelişki ve tenakuza mahal vermeden, yine ne ihmal ve gevşeklik ne de baskı ve tazyiklere fırsat vermeden nefsin diğer boyutlarına da riayet etmektedir. Aynı zamanda bu hitap

* Dr. Öğrt. Üyesi, Ankara Yıldırım Beyazıt Üniversitesi, İslami İlimler Fakültesi, Arap Dili ve Belağatı ABD, e-posta: akudat@ybu.edu.tr
orcid: 0000-0002-8153-8181
** Öğr, Gör, Ankara Yıldırım Beyazıt Üniversitesi, İslami İlimler Fakültesi, Arap Dili ve Belağatı ABD, e-posta: amir2078@gmail.com
Orcid: 0000-0002-0576-3205

çıkarımlarda bulunurken abartıdan ve batıl inançtan uzak, bütün gerçekçilik ve şeffaflıkla dengeyi gerçekleştirmeye çalışır.

Bu çalışmada söz konusu iki hitabın insan nefsinin en ince detayına kadar dikkat çektiği görülecektir. Bu bağlamda teşhis ve tedavisi aşırılık ve dağınıklıktan uzak, tam bir denge içerisinde olmaktadır. Kur'an-ı Kerim ve Hadis-i şeriflerde yer alan bu nefsanî hitabın, onun sorunlarını çözmede veya onu daha ileriye taşıma hususunda insanoğlunun gücünün üstünde olduğundan, üstün hitap olarak niteleyebiliriz. Bu iki hitap, nefsin bütün bileşenlerini, huy ve mizacını, eğilim ve isteklerini toplamış içinde bulunduğu durumu ve gelecekte bulunacağı halini göz önünde tutarak sorunların çözümüne gitmiştir.

Anahtar Kelimeler: Kur'an, Hadis, Hitap, Nefis, Terbiye

PSYCHOLOGICAL CALLING TO PERSONALITY OF HUMAN BEINGS IN THE QUR'AN AND HADITHS

ABSTRACT

The discourses in the Holy Quran and the Prophet's Sunnah are two guiding speeches for human beings and for the interest of them. Therefore, these two speeches are comprehensive for all aspects of human beings, models for them, and work for guidance of them through their relationship with themself and with their Creator and with their surroundings. It is seen that that the Quran and the Hadith take care of the first point that is reclamation, improvement, and reform of human beings from the inside, beginning with their belief, and reaching their feelings and feelings. It is important that the reform of human beings starts from the inside to the outside and reflects on the behaviours of them

The importance of the research stems from the fact that it will high light the discourse (Quranic and prophetic) which simulates the human psyche in all its varieties, taking into account its characteristics, tendencies and feelings, and guiding it through education and guidance,

taking into account the other psychological aspects without neglect or restriction, without contradiction and contradiction. And the discourse achieved balance in the subtraction, away from exaggeration, and superstition, with realism and transparency at the same time, and we find that these two speeches have sponsored the most accurate details of the human soul, and treated and put a balance in the balance away from excessive and false beliefs.

We can also summarize this psychological discourse, which is found in the Qur'an and the Hadith, as superlative, because it is above the ability of human beings in the discourse of the soul and the treatment of its problems or in the payment of the best. These two speeches (Quranic and prophetic) have gathered all the components, temperament, tendencies, and desires of personality of human beings and gone into solving the problems by considering the situation and the future.

Keywords: Quran, Hadith, Discourse, Psychology, Education

خطاب النفسي في القرآن الكريم والحديث النبوي

ملخص

الخطاب في القرآن الكريم والحديث النبوي هما خطابان موجهان للإنسان، ولأجل مصلحة الإنسان، لذلك جاء هذان الخطابان شاملين لكل الجوانب المتعلقة بالإنسان، وليرسما له نموذجاً يسير عليه، ويعمل بمقتضاه، من خلال علاقته مع نفسه ومع خالقه ومع محيطه المتمثل بالبشر وكذلك الطبيعة.

ولعل النقطة الأولى التي راعاها القرآن الكريم والحديث الشريف وبدأا بها، هي اصلاح الإنسان من الداخل، بداية من عقيدته وصولاً إلى نفسيته ومشاعره، لأن الإصلاح يبدأ من الداخل وصولاً إلى الخارج المتمثل بالسلوك.

تنبع أهمية البحث من كونه سيسلط الضوء على الخطاب (القرآني والنبوي) الذي يحاكي النفس البشرية بكل أصنافها، مراعيا في ذلك سماتها وميولها ومشاعرها، وموجهاً لها من خلال التربية والإرشاد، مع مراعاة الجوانب النفسية الأخرى دون إهمال أو تضييق، ودون تناقض وتضاد. ومحققا في نفس الوقت التوازن في الطرح، بعيداً عن الشطط والخرافة، بكل واقعية وشفافية، وسنجد أن هذين الخطابين قد راعيا أدق التفاصيل للنفس البشرية، فكان العلاج والطرح قمة في التوازن بعيداً عن الشطط و الغلو.

كما يمكننا أن نصف هذا الخطاب النفسي الموجود في القرآني الكريم والحديث النبوي، بأنه فائق (أحمد مختار،2008 ،3، 1753)، لكونه فوق قدرة البشر في خطاب النفس ومعالجة مشاكلها أو في دفعها للأفضل، فقد اجتمعت لهذين الخطابين (القرآني والنبوي) الإحاطة بمكنونات النفس وطباعها ومشاربها، فجاءت الحلول لقضاياها مراعية ظرف الحال الآني لها، وكذلك الحالة المستقبلية لها، في حال استمرت تلك النفس بالأخذ من هذا المعين الدافق.

الكلمات المفتاحية: القرآن،الحديث،الخطاب،النفس،التربية .

مقدمة

إن الباحث في قضية النفس، سيجد دراسات كثيرة في ميادين كثيرة، وكل منها يتناول الموضوع من جهة اختصاصه، أو من جهة فكرية معينة.

وأغلب هذه الدراسات لم تصل إلى نتيجة راضية مقنعة، باستثناء الدراسات والأبحاث، التي استضاءت بنور القرآن الكريم وهدي السنة النبوية الشريفة، فقد وضعت هذه الدراسات الإسلامية وغيرها يدها على كنوز حقيقية من خلال القرآن والسنة، فلا تجد التناقض والتضاد فيها كما هو حال الدراسات الأخرى. وهذا لسبب رئيسي واحد، هو أن الدراسات الإسلامية اعتمدت على المنهج الرباني، منهج خالق البشر الذي قدر فهدى، والذي يعلم ما يصلح حال البشر أو يضرهم، في حين نجد أن الدراسات الأخرى قد تاهت في بحور لا شاطئ لها، فغرقت في بحور الفلسفات الاغريقية تارة، أو اعتمدت على مناهج تقوم على الإلحاد كمنطلق في نظرياتها، أو اعتمدت على نظريات مادية، وإلى غير ذلك مما لا يعد من المناهج التائهة، وهذا الكلام ليس من قِبل التنظير بل من الحقيقة التي ستعرض من خلال النماذج القرآنية والحديث النبوي. ولكن يجدر بنا أولا أن نحدد بعض المفاهيم الرئيسية للبحث.

التعريف بمصطلحات البحث

الخطاب من "خطب: خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام. وخطب الخطيب خطبة حسنة. وخطب الخاطب خطبة جميلة. وكثر خطّابها. وهذا خطبها، وهذه خطبه وخطبته" (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري ، 1988، 255.).

كما "يراد به أحيانا (الكلام)، ويطلق على (توجيه الخطاب)، ويعني أن تتوجه إفادة المعنى إلى السامع، أي: الموجود القابل للفهم. وإذا أضيف إلى كلمة (الشارع) فإنما يعني

عين ما أفاد، وليس توجيه ما أفاد. ونعني بـ (عين ما أفاد) أنه نفس المعاني التي تضمنتها الألفاظ والتراكيب" (هيثم هلال ، 2008 ، 139).

وترجع أصالة مصطلح الخطاب في التراث الإسلامي" إلى إطلاقه على لفظ القرآن الكريم، فقد استخدم العلماء مصطلح (الخطاب) في سياق التفسير والشواهد القرآنية والأدلة، ويرجع هذا الاختيار الدقيق إلى مصطلح الخطاب القرآني، خطاب الشارع الحكيم وخطاب الوحي والخطاب النبوي- الحديث- في قول علماء أصول الدين" (محمد عكاشة ،2013 ، 17).

وقد "ورد مصطلح الخطاب في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ﴾ (سورة ص: 38). وكذا في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (ص:20). وهو ما وقف عنده علماء التفسير والبلاغة باعتبار الإضافة هنا تحيل إلى مستوى عالٍ من مستويات التخاطب" (جماليات الخطاب في النص القرآني، ص73.)، وهذا ما أكد عليه فخر الرازي بقوله: " وَلَمَّا بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَالَ حَالِ جَوْهَرِ النَّفْسِ النُّطْقِيَّةِ الَّتِي لِدَاوُدَ بِقَوْلِهِ: وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ أَرْدَفَهُ بِبَيَانِ كَمَالِ حَالِهِ فِي النُّطْقِ وَاللَّفْظِ وَالْعِبَارَةِ فَقَالَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ وَهَذَا التَّرْتِيبُ فِي غَايَةِ الْجَلَالَةِ"(أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي ، 26، 376 و أيوب بن موسى الحسيني القريمي ، 1999 ،1، 687).

أما مصطلح النفس فقد اختلف في تعريفها وأقسامها، وقد يعبر عن النفس بالروح، كما ذكر ابن عاشور: "وَالرُّوحُ: يُطْلَقُ عَلَى الْمَوْجُودِ الْخَفِيِّ الْمُنْتَشِرِ فِي سَائِرِ الْجَسَدِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ آثَارُهُ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَالتَّفْكِيرِ، وَهُوَ الَّذِي يَتَقَوَّمُ فِي الْجَسَدِ الْإِنْسَانِيِّ حِينَ يَكُونُ جَنِينًا بَعْدَ أَنْ يَمْضِيَ عَلَى نُزُولِ النُّطْفَةِ فِي الرَّحِمِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا"(محمد الطاهر بن م بن عاشور، 1984 ، 15، 196).

أما وصفنا للخطاب القرآني والنبوي بالفائق(انظر: أحمد مختار ،2008، 3، 1753) ، فلأنه خطاب كامل متكامل متوازن، لم يستطع أحد من البشر أن يجاري هذا الخطاب، فلربما تكلموا عن جانب من جوانبه، لكن دون مراعاة الجوانب النفسية والإنسانية الأخرى، كما اجتمعت كلها في القرآن الكريم والحديث الشريف عناية ورعاية وتربية، ومن هنا كان التميز الحقيقي لهذا الخطاب (القرآني والنبوي)، وظهر تفوقه على ما سواه، لذلك أطلقت عليه صفة الفائق.

النفس وتقسيماتها في القرآن الكريم والحديث الشريف

قسم العلماء النفس في القرآن الكريم والحديث الشريف إلى أقسام وفق صفاتها، لكن أكثرهم يجعلون النفس مثل الروح أو يعبرون عن الأولى بالأخرى. فابن القيم الجوزية يقول:

"وَأما أَرْوَاح بنى آدم فَلم تقع تَسْمِيَتهَا فِي الْقُرْآن إِلَّا بِالنَّفسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أيتها النَّفس المطمئنة﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا أقسم بِالنَّفسِ اللوامة﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن النَّفس لأمارة بالسوء﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أخرجُوا أَنفسكُم﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَفس وَمَا سواهَا فألهمها فجورها وتقواها﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كل نفس ذائقة الْمَوْت﴾، وَأما فِي السّنة فَجَاءَت بِلَفْظ النَّفس وَالروح"(محمد شمس الدين ابن قيم الجوزي ، 1999، 145).

فبعضهم يرى أن أنواع النفس في القرآن الكريم على النحو التالي، ويقسمها بحسب أوصافها (انظر: موقع (مركز الإشعاع الإسلامي للدراسات والبحوث الإسلامية)، https://www.islam4u.com):

1. النفس الأمارة: و هي التي تأمر الإنسان بالسيئات، و التي قال عنها القرآن الكريم: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف:53) .

2. النفس اللَّوامة: و هي التي تندَم بعد ارتكاب المعاصي و الذنوب فتلوم نفسها، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: 2).

3. النفس المطمئنة: و هي النفس الآمنة التي لا يستفزها خوف و لا حزن و الواصلة إلى مرحلة الاطمئنان و الراحة و الطاعة التامة لأوامر الله و المشمولة بعناياته الربانية، كما في قوله تعالى:: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر:27) .

4. النفس الراضية: و هي النفس التي رضيت بما أوتيت، و التي قال عنها القرآن الكريم: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (الفجر: 28).

5. النفس المرضية: ، و هي النفس التي رضي الله عَزَّ و جَلَّ عنها و التي قال عنها القرآن الكريم: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (الفجر: 28).

6. النفس المُلهَمَة: و هي النفس التي ألهَمها الله عَزَّ و جَلَّ و التي قال عنها القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس :6) .

كما يجدر بنا أن نعرج على ذكر الروح، لأن لها ارتباط بالنفس، وهنا سنجد أن بعضهم قدّم تقسيمات للروح، وأدرج النفس فيها، فجعل للروح خمسة أقسام: روح البدن، وروح القوة، وروح الشهوة، وروح الإيمان، وروح القدس. وجعل الأرواح الثلاثة الأولى (روح البدن وروح القوة وروح الشهوة) تمثل النفس التي ذكرت بالقرآن، وهي النفس المذمومة، وهي الروح التي تشترك فيها جميع الحيوانات البهيمية، أما الروح الرابعة (

روح الإيمان)، فهي روح التي يتميز بها الإنسان العاقل عن غيره من المخلوقات، وأما الروح الخامسة، فهي روح القدس، وهي التي تشمل روح الإيمان وروح القدس، وهي التي تميز الأنبياء والرسل والصالحين (فيصل غازي محمد،2012، ، 2).

والروح في القرآن الكريم جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:85)، " فَالسَّائِلُونَ عَنِ الرُّوحِ هُمْ قُرَيْشٌ. وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُودَ أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ عَنْهُ، فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، قَالَ: فَسَأَلُوهُ عَنِ الرَّوْحِ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ" (محمد الطاهر بن عاشور ،1984، 15 ، 194).

وأما عن الروح في الحديث النبوي الشريف ما روي "فِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا مَعَ النَّبِيءِ فِي حَرْثٍ بِالْمَدِينَةِ إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَسَأَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ فَأَمْسك النبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَرُدَّ"(محمد الطاهر بن عاشور ،1984، 15، 195. وانظر: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني 2002، 1، 62).

كما نلاحظ أن ذكر النفس في أحاديث رسول الله ﷺ التي فيها قوله ﷺ: (والذي نفس محمد بيده)، هي إشارة إلى معنى الروح أيضا.

وبناء على ما سبق، يمكننا أن نستخدم مصطلح النفس مع تضمنه لمفهوم الروح، وهذا ما سيجري عليه البحث.

الخطاب القرآني والنبوي للنفس البشرية

الخطاب القرآني "في تحدثه للنفس الإنسانية حارب هذا الملل، وأقصاه عنها، وعمل على تجديد حياتها بين الحين والحين حتى إنه ليمكنها أن تستقبل في كل يوم ميلادا جديدا: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (طه:113). وإحداث الذكر هو تجديد معنويات الإنسان كلما صدئت على التعب ومس الذهول. أسلوب القرآن في هذا إجمال يربى على كل تقدير. إنه يخترق أسوار الغفلة، ويصل إلى صميم القلب، ثم يقفه راغبا أو راهبا بإزاء ما يريد"(محمد الغزالي ،2005، 109).

والخطاب القرآني هو خطاب "يسعى إلى إيصال الإنسان إلى السعادة في الدارين، وفي هذا المجال يمكننا التحدث عن مرتبتين للسعادة: سعادة تامة، وسعادة فوق التامة، أما السعادة التامة، فهي أن يكتسب الإنسان من الصفات الفاضلة ما يصير بها كاملا في ذاته، فإذا فرغ من هذه الدرجة انتقل إلى الدرجة الأعلى منها، وهي التي فوق التامة، وهي الاشتغال بتكميل الناقصين، وما ذاك إلا بتعليمهم العلم. وإلى الدرجة التامة أشار بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...﴾ (فصلت:30)، وإلى الدرجة التي فوق التامة أشار بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ...﴾ (فصلت:33)(علي حسين فهد غاضب،1412 ، 238).

أما عن قضية الأمن النفسي، فلم تكن بعيدة عن عناية القرآن الكريم في خطابه، حيث أولاها الخطاب القرآني عناية بالغة، لما لها من دور في حياة الإنسان وطمأنينته واستقراره و تحريره من القلق والخوف، ومنشأ هذا من ظلال الإيمان الذي يمنحه الاطمئنان والثقة بالله سبحانه وتعالى (انظر: أزهار يحيى قاسم، و أحمد عامر سلطان الأمن النفسي، ص3) ، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:30) .

فالخطاب النفسي هو خطاب فائق يتسلل إلى النفس تسللا، وإن مر عبر البصر والسمع والعقل، لكن هذه الثلاثة الأخيرة، ليس لها دور سوى النقل. فخطاب النفس لغة لا يدركها إلا من فتح نوافذ عقله ليسمح لذلك المعنى أن يمر، فهو يحتاج للإرادة و الإصغاء، وأحيانا حتى لو لم يعرف المعاني و اللغة، وإننا وجدنا تجارب لكثيرين من الأجانب الذين لا يعرفون اللغة العربية أو يفهمونها، فعندما سمعوا القرآن كانوا لا يمتلكون تعبيرا سوى الارتياح لما سمعوه، وأنهم يشعرون بالسعادة من دون القدرة على التفسير أو التعبير عن شعورهم أو أسباب ذلك الارتياح.

"وأكبر السبب في ذلك أن القرآن الكريم ليس عن طبع إنساني محدود بأحوال نفسية لا يجاوزها، فهو يداور المعاني، ويريغ الأساليب ويخاطب الروح بمنطقها من ألوان الكلام لا من حروفه، وهو يتألف الناس بهذه الخصوصية فيه، حتى ينتهي بهم مما يفهمون إلى ما يجب أن يفهموا" (مصطفى صادق الرافعي إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص207).

ومن خطاب النفس نجد في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء:44)، " كل الوجود يهمس في حس الزمان ذلك اللحن الخالد (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ). تلك لوحة: ليست من عالم الأوهام، بل من عالم الحقيقة، وليست من عالم الخيال بل من عالم الواقع، كم لفت القرآن إليها النظر، وكم خاطب فيها العقل .. علّه يعين البصر، فاسمع وأنصت .. علّك تفقه" (صالح أحمد الشامي ،1988، 203).

والآن لنقف وقفة مع مقطع من مقاطع القرآن، ولنصغي له بعيون القلب وآذان النفس، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (الحشر 18) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ (الحشر 19) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر:21).

وهنا يقول ابن عاشور: " وَلَمَّا كَانَ مَا تَضَمَّنَتْهُ السُّورَةُ مِنْ تَأْيِيدِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ وَفَيْضِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ كَانَ مِنْ مَنَافِعِ الدُّنْيَا، أَعْقَبَهُ بِتَذْكِيرِهِمْ بِالْإِعْدَادِ لِلْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ: وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ أَيْ لِتَتَأَمَّلْ كُلُّ نَفْسٍ فِيمَا قَدَّمَتْهُ لِلْآخِرَةِ. وَجُمْلَةُ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ، عَطْفُ أَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ آخَرَ. وَهِيَ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ جُمْلَةِ اتَّقُوا اللَّهَ وَجُمْلَةِ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ. وَذِكْرُ" (محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي التحرير والتنوير، ج 28، ص110.) " نَفْسٌ، إِظْهَارٌ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِأَنَّ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ: وَانْظُرُوا مَا قَدَّمْتُمْ، فَعَدَلَ عَنِ الْإِظْهَارِ لِقَصْدِ الْعُمُومِ أَيْ لِتَنْظُرُوا وَتَنْظُرْ كُلُّ نَفْسٍ. وَتَنْكِيرُ نَفْسٌ يُفِيدُ الْعُمُومَ فِي سِيَاقِ الْأَمْرِ، أَيْ لِتَنْظُرْ كُلُّ نَفْسٍ... وَأَطْلَقَ (غَدٍ) عَلَى الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ مَجَازًا لِتَقْرِيبِ الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْبَعِيدِ لِمُلَازَمَةِ اقْتِرَابِ الزَّمَنِ لِمَفْهُومِ الْغَدِ ... وَتَنْكِيرُ (غَدٍ) لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّهْوِيلِ، أَيْ لِغَدٍ لَا يُعْرَفُ كُنْهُهُ" (محمد الطاهر بن عاشور،1984 ، 28 ، 111). "وَإِعَادَةُ وَاتَّقُوا اللَّهَ لِيَبْنِيَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ فَيَحْصُلُ الرَّبْطُ بَيْنَ التَّعْلِيلِ وَالْمُعَلَّلِ إِذْ وَقَعَ بَيْنَهُمَا فَصْلُ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ. وَإِنَّمَا أُعِيدَ بِطَرِيقِ الْعَطْفِ لِزِيَادَةِ التَّأْكِيدِ فَإِنَّ التَّوْكِيدَ اللَّفْظِيَّ يُؤْتَى بِهِ تَارَةً مَعْطُوفًا...

وَذَلِكَ أَنَّ فِي الْعَطْفِ إِيهَامَ أَنْ يَكُونَ التَّوْكِيدُ يُجْعَلُ كَالتَّأْسِيسِ لِزِيَادَةِ الِاهْتِمَامِ بِالْمُؤَكَّدِ. فَجُمْلَةُ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ تَعْلِيلٌ لِلْحَثِّ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَمَوْقِعُ إِنَّ فِيهَا مَوْقِعُ التَّعْلِيلِ... أَرْدَفَ بِقَوْلِهِ: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ [الْحَشْر: 19] أَيْ أَهْمَلُوا التَّقْوَى بَعْدَ أَنْ تَقَلَّدُوهَا كَمَا سَيَأْتِي أَنَّهُمُ الْمُنَافِقُونَ فَإِنَّهُمْ تَقَلَّدُوا الْإِسْلَامَ وَأَضَاعُوهُ قَالَ تَعَالَى: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ [التَّوْبَة: 67] . وَفِي قَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ إِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ، فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً بِدِلَالَتِهَا أَتَمَّ اسْتِقْلَالٍ فَتَجْرِي مَجْرَى الْأَمْثَالِ وَلِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ فِي نفس المخاطبين.

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾، بَعْدَ أَنْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَإِعْدَادِ الْعُدَّةِ لِلْآخِرَةِ أَعْقَبَهُ بِهَذَا النَّهْيِ تَحْذِيرًا عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الدِّينِ وَالتَّغَافُلِ عَنِ التَّقْوَى، وَذَلِكَ يُفْضِي إِلَى الْفُسُوقِ. وَجِيءَ" (محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي التحرير والتنوير، ج28 ، 112) " فِي النَّهْيِ بِنَهْيِهِمْ عَنْ حَالَةِ قَوْمٍ تَحَقَّقَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الصِّلَةُ لِيَكُونَ النَّهْيُ عَنْ إِضَاعَةِ التَّقْوَى مُصَوَّرًا فِي صُورَةٍ مَحْسُوسَةٍ هِيَ صُورَةُ قَوْمٍ تَحَقَّقَتْ فِيهِمْ تِلْكَ الصِّلَةُ وَهُمُ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ التَّقْوَى. وَهَذَا الْإِعْرَاضُ مَرَاتِبُ قَدْ تَنْتَهِي إِلَى الْكُفْرِ الَّذِي تَلَبَّسَ بِهِ الْيَهُودُ وَإِلَى النِّفَاقِ الَّذِي تَلَبَّسَ بِهِ فَرِيقٌ مِمَّنْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ فِي أَوَّلِ سِنِيِّ الْهِجْرَةِ، وَظَاهِرُ الْمَوْصُولِ أَنَّهُ لِطَائِفَةٍ مَعْهُودَةٍ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِ «الَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ» الْمُنَافِقِينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ وَلَمْ يَهْتَدُوا لِلتَّوْحِيدِ بِهَدْيِ الْإِسْلَامِ فَعَبَّرَ عَنِ

النِّفَاقِ بِنِسْيَانِ اللَّهِ لِأَنَّهُ جَهْلٌ بِصِفَاتِ اللَّهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْكَمَالِ... وَقَدْ أَطْلَقَ نِسْيَانَهُمْ عَلَى التَّرْكِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ عَمْدٍ أَيْ فَنَسُوا دَلَائِلَ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَدَلَائِلَ صِفَاتِهِ وَدَلَائِلَ صدق رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَهْمِ كِتَابِهِ فَالْكَلَامُ بِتَقْدِيرِ حَذْفِ مُضَافٍ أَوْ مُضَافَيْنِ.

وَمَعْنَى (أَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ فِي مَدَارِكِهِمُ التَّفَطُّنَ لِفَهْمِ الْهَدْيِ الْإِسْلَامِيِّ فَيَعْمَلُوا بِمَا يُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَلِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ فِي الدُّنْيَا، إِذْ خَذَلَهُمْ بِذَبْذَبَةِ آرَائِهِمْ فَأَصْبَحَ الْيَهُودُ فِي قَبْضَةِ الْمُسْلِمِينَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَأَصْبَحَ الْمُنَافِقُونَ مَلْمُوزِينَ بَيْنَ الْيَهُودِ بِالْغَدْرِ وَنَقْضِ الْعَهْدِ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بِالِاحْتِقَارِ وَاللَّعْنِ. وَأَشْعَرَ فَاءُ التَّسَبُّبِ بِأَنَّ إِنْسَاءَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ أَنْفُسَهُمْ مُسَبَّبٌ عَلَى نِسْيَانِهِمْ دِينَ اللَّهِ" (محمد الطاهر بن عاشور، 1984 ، 28، 113).

وفي هذا المقطع لسيد قطب تفسير لطيف، حاول فيه تصوير هذا الخطاب النفسي بعباراته، حيث يقول: "والتقوى حالة في القلب يشير إليها اللفظ بظلاله، ولكن العبارة لا تبلغ تصوير حقيقتها حالة تجعل القلب يقظاً حساساً شاعراً بالله في كل حالة . خائفاً متحرجاً مستحيياً أن يطلع عليه الله في حالة يكرهها . وعين الله على كل قلب في كل لحظة . فمتى يأمن أن لا يراه؟!

(ولتنظر نفس ما قدمت لغد)، وهو تعبير كذلك ذو ظلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه.. ومجرد خطوره على القلب، يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته، ويمد ببصره في سطورها كلها يتأملها وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته . لينظر ماذا قدم لغده في هذه الصفحة . . وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد . فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلاً، ونصيبه من البر ضئيلاً؟ إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبداً، ولا يكف عن النظر والتقليب!

ولا تنتهي الآية التي تثير كل هذه المشاعر حتى تلح على القلوب المؤمنة بمزيد من الإيقاع: (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) . . فتزيد هذه القلوب حساسية ورهبة واستحياء . . والله خبير بما يعملون . .

وبمناسبة ما تدعوهم إليه هذه الآية من يقظة وتَذكُّر، يحذرهم في الآية التالية من أن يكونوا (كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) . . وهي حالة عجيبة . ولكنها حقيقة . . فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى . وفي هذا نسيان لإنسانيته . وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى، وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه، فلا يدخرُ له زاداً للحياة الطويلة الباقية، ولا ينظر فيما قدم لها في الغداة من رصيد . (أولئك هم الفاسقون) . . المنحرفون الخارجون .

وفي الآية التالية يقرر أن هؤلاء هم أصحاب النار، ويشير للمؤمنين ليسلكوا طريقاً غير طريقهم وهم أصحاب الجنة . وطريق أصحاب الجنة غير طريق أصحاب النار:

﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾. .لا يستويان طبيعة وحالاً، ولا طريقاً ولا سلوكاً، ولا وجهة ولا مصيراً، فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبداً في طريق . ولا يلتقيان أبداً في سمة . ولا يلتقيان أبداً في خطة . ولا يلتقيان أبداً في سياسة. ولا يلتقيان أبداً في صف واحد في دنيا ولا آخرة . . (أصحاب الجنة هم الفائزون) . . يُثبتُ مصيرهم، ويدع مصير أصحاب النار مسكوتاً عنه . معروفاً . وكأنه ضائع لا يعني به التعبير!" (سيد قطب ، 2003، 5، 353).

وبعدها يأتي "الإيقاع الذي يتخلل القلب ويهزه؛ وهو يعرض أثر القرآن في الصخر الجامد لو تنزل عليه: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾. وهي صورة تمثل حقيقة . فإن لهذا القرآن لثقلاً وسلطاناً وأثراً مزلزلاً لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته .

واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحاً لتلقي شيء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازاً ويرتجف ارتجافاً . ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام . أو أشد .

والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله). (حشر 21) . والذين أحسوا شيئاً من مس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقاً لا يعبر عنه إلا هذا النص القرآني المشع الموحي .

(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون). (حشر 21) . وهي خليقة بأن توقظ القلوب للتأمل والتفكير "(سيد قطب ، 2003، 5، 352).

أظن أن النفس بعد هذا السرد الراقي، والتوضيح الممتع، قد دخلت إلى علم الحقيقة الصحيح، دخلت إلى عالم ينبغي أن تكون فيه دائما، حتى تأنس وترتاح بجواره، إنه الخطاب النفسي الفائق الذي فتق على لسان سيد قطب هذا التصوير الرائع، لتلك الحالة الشعورية النفسية الحقيقية لحالة الإنسان المؤمن، وهذا لا ينبغي لغير المؤمنين، الذين يستحيل أن يصلوا إلى هذا الشعور النفسي الرائع الممتع المريح بعيدا عن الإيمان.

فالخطاب النفسي هو هذا الخطاب الذي يراعي أدق التفاصيل في الأعماق النفس البشرية و يحميها ويرتقي بها من الغوض في أوحال الكربات والعقد النفسية، ففي قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ

نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: 11)

هذا النهي المطلق لكل أصناف السخرية التي تفعل في روح ونفس المستهزأ به ما لا يفعله السلاح، لأن آلامه تبقى تحرق النفس ببطء ولا يظهر ذلك الألم، ولو كابر صاحبها، فالسخرية فيها من الهدم للبنيان النفسي الشيء الكبير والعظيم الأثر. فبمجرد السخرية من الشخص يتأثر جسده من زيادة الضغط وغيره، ويبدأ بالغليان النفسي الداخلي، محاولا تجييش كل الإمكانيات لرد على السخرية، أو لاستعادة التوازن المفقود الذي أحدثته تلك السخرية، حقيقة أن السخرية تهدر طاقة الإنسان، حيث يقوم المستهزَأ به على تسخير كل إمكانياته للرد على السخرية دون سواها، وفي هذا هدر حقيقي لطاقة الإنسان وإمكانياته، فبدلا من استخدامها في ما يفيد، سيضطر لاستعمالها في ما لا يفيد، وهكذا فالتحريم والنهي عن السخرية ليس فقط من أجل الحفاظ على هدوء النفس وسكينتها، بل إلى أبعد من هذا وهو الاستفادة منها ومن إمكانياتها في ما ينفع.

لذلك يمكننا القول: إن القرآن كتاب هداية ونظام حياة، وأثره يتجاوز اللغة إلى ما بعد اللغة أو فوقها، لأنه تنزيل من رب العالمين، لكن يحتاج منا إلى الإقبال عليه .

ولعل بعضنا عندما يقرأ القرآن مرات عديدة تستوقفه آية، ويشعر أنه لم يقرأها قبل اليوم، رغم أنه قرأها مرارا. فلعل هذا يندرج تحت أن النفس تقطف من القرآن زهورا ومعان لا تعطى إلا للمقبلين عليه ...

وفي هذا السياق يقول الرافعي: "والقرآنُ وإن كان لم يخرج عن أعلى طبقات اللغة، ولا برز عن وجوه العادة في تصريفها، غير أنه أتى بذلك من وراء النفس لا من وراء اللسان. فجعل من نظمه طريقة نفسية في الطريقة اللسانية، وأدار المعاني على سنن ووجوه تجعل الألفاظ كأنها مذهب هذه المعاني في النفس، فليس إلا أن تقرأ الآية على العربي أو من هو في حكمه لغة وبلاغة، حتى تذهب في نفسه مذهبها: لا تتخلف، على حين أن أكثر المعاني الإنسانية يجيء من النقص في السياسة البيانية، بحيث ترى نفس السامع أو القارئ هي التي تذهب فيه فتأخذُ إلى جهة وتعدل على جهة، وتصعد في ناحية وتستبطِنُ في ناحية أخرى، ولا يكون من شأنها أن تنقادَ وتذعنَ، ولكن أن تكابر وتأبى أو تتصفح وتستدرك أو تستحسن وتزدري؛ لأن المعنى قد ألقي إليها في ألفاظ تقصر بحقيقته

النفسية في تركيبها ونظمها أو تضعف هذه الحقيقة، أو تلبسها بغيرها، أو تهمل تصورها لوناً من الألوان، أو تجيء بها على الشبه والمحاكاة مما لا يبلغ الحقَّ في تصورها والتنبيه عليها" (مصطفى صادق الرافعي إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص262)

فالصورة الفنية في الخطاب القرآني " تثير الانفعالات المختلفة، من خوف ورجاء وحب وكره، وإقدام وإحجام ... لأن الله الذي أنزل القرآن الكريم، هو الذي خلق الإنسان، وهو أعلم بما يؤثر فيه، ويحرك نفسه لكي تستجيب" (عبد السلام أحمد الراغب ،2001، 417).

لذلك وجدنا أن الألفاظ في القرآن الكريم مرتبة ترتيبا يناسب المعاني في النفس وخطابها، وفي هذا قال الجرجاني: "من الطويل قِفا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبيبٍ ومنزل " منزل قفا ذكرى من نبك حبيب، أخرجته من كمال البيان، إلى مجال الهَذَيان، نعم وأسقطت نسبتَهُ من صاحبه، وقطعت الرَّحِمِ بينه وبين مُنْشِئه، بل أحَلْت أن يكون له إضافةٌ إلى قائل، ونَسَبٌ يَخْتَصّ بمتكلم، وفي ثبوت هذا الأصل ما تَعْلم به أنّ المعنى الذي له كان هذه الكلم بيتَ شعرٍ أو فصلَ خطابٍ، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحُكْمُ - أعني الاختصاص في الترتيب - يقع في الألفاظ مرتَّباً على المعاني المرتَّبَة في النفس، المنتظمةِ فيها على قضيّة العقل، ولا يُتَصوَّر في الألفاظ وُجُوبُ تقديم وتأخير، وتخصُّصٍ في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وُضِعَت المراتبُ والمنازلُ في الجمل المركَّبة. مرجع

كما أن الخطاب القرآني قد عالج كل الجوانب النفسية، فلم يترك جانبا من جوانبها إلا وطرقه بأسلوب يوازي مستوى الحالة، ويطرح لها العلاج المناسب، ويرتقي بها إلى مستويات عالية من السمو والرقي، ففي مجال الغصب، وهو حالة بشرية طبيعية تعتري الإنسان في لحظات معينة، جاء الخطاب القرآني معالجا لها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:201)، " وَهَذَا الْأَمْرُ مُرَادٌ بِهِ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْتِدَاءً وَهُوَ شَامِلٌ لِأُمَّتِهِ... مرجع

وَالنَّزْغُ النَّخْسُ وَالْغَرْزُ...وَإِطْلَاقُ النَّزْغِ هُنَا عَلَى وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ اسْتِعَارَةٌ: شَبَّهَ حُدُوثَ الْوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي النَّفْسِ بِنَزْغِ الْإِبْرَةِ وَنَحْوِهَا فِي الْجِسْمِ بِجَامِعِ التَّأْثِيرِ الْخَفِيِّ "(محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي التحرير والتنوير، ج9، ص229) "هَذِهِ الِاسْتِعَارَةُ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْءَانِ حَتَّى صَارَتْ كَالْحَقِيقَةِ. وَالْمَعْنَى إِنْ أَلْقَى إِلَيْكَ الشَّيْطَانُ مَا يُخَالِفُ هَذَا الْأَمْرَ بِأَنْ سَوَّلَ لَكَ الْأَخْذَ بِالْمُعَاقَبَةِ أَوْ سَوَّلَ لَكَ تَرْكَ أَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ غَضَبًا عَلَيْهِمْ أَوْ يَأْسًا مِنْ هُدَاهُمْ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْهُ لِيَدْفَعَ عَنْكَ حَرَجَهُ وَيَشْرَحَ صَدْرَكَ لِمَحَبَّةِ الْعَمَلِ بِمَا أُمِرْتَ بِهِ... فَأَمَرَ اللَّهُ بِدَفْعِ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ بِالْعَوْذِ بِاللَّهِ، وَالْعَوْذُ بِاللَّهِ هُوَ الِالْتِجَاءُ إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ بِالْعِصْمَةِ، أَوِ اسْتِحْضَارُ مَا حَدَّدَهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ حُدُودِ الشَّرِيعَةِ"(محمد الطاهر بن عاشور ،1984، 9، 230).

وَهَذَا مِثْلُ اسْتِغْفَارِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» (محمد الطاهر بن عاشور ، 1984، 9، 231).

"فَالشَّيْطَانُ لَا يَيْأَسُ مِنْ إِلْقَاءِ الْوَسْوَسَةِ لِلْأَنْبِيَاءِ لِأَنَّهَا تَنْبَعِثُ عَنْهُ بِطَبْعِهِ، وَإِنَّمَا يَتَرَصَّدُ لَهُمْ مَوَاقِعَ خَفَاءِ مَقْصِدِهِ طَمَعًا فِي زَلَّةٍ تَصْدُرُ عَنْ أَحَدِهِمْ، وَإِنْ كَانَ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِغْوَاءَهُمْ، وَلكنه لَا يُفَارِقهُ رَجَاءَ حَمْلِهِمْ عَلَى التَّقْصِيرِ فِي مَرَاتِبِهِمْ، وَلَكِنَّهُ إِذَا مَا هَمَّ بِالْوَسْوَسَةِ شَعَرُوا بِهَا فَدَفَعُوهَا، وَلِذَلِكَ عَلَّمَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الِاسْتِعَانَةَ عَلَى دَفْعِهَا بِاللَّهِ تَعَالَى"(محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي التحرير والتنوير، ج9، ص230. انظر: عبد السلام أحمد الراغب ، 2001، 263-264).

ومعلوم أن الشيطان يسعى دائما على إغواء ابن آدم وجعله يتصرف تصرفات خارجة عن دائرة المنهج الإسلامي، فقد يدفع الإنسان للغضب مثلا، و "إن للغضب تأثير شديد على الإنسان وعلى سلوكه ذهنيا وفكريا وجسميا، وتعتريه تغيرات داخلية وخارجية تظهر ملامحها على تصرفات الفرد، مما يجعله يصدر أفعال رديئة يجوز فيها الغضب على نفسه وعلى الآخرين، وقد يكون للغضب جوانب إيجابية إذا وجه التوجيه الصحيح" (علاء الدين موسى إبراهيم أبو مصطفى ، 2009، 72) ، كما رأينا في الآية الكريمة السابقة.

وهناك بعض الباحثين تطرق إلى موضوع الخطاب الوجداني وجعله موازيا للخطاب النفسي، وهو الذي "يستهدف العواطف، ويدعوها لتكوين موقف محدد تجاه قضية مقصودة" (، زينب بشارة يوسف من أساليب التربية في القرآن الكريم، ص44.) ففي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر:23)، " وَمَضْمُونِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَهُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ يُلَيِّنُ قُلُوبَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ لِأَنَّ مَضْمُونَ الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ يُثِيرُ سُؤَالَ سَائِلٍ عَنْ وَجْهِ قَسْوَةِ قُلُوبِ الضَّالِّينَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَكَانَتْ جُمْلَةُ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ إِلَى قَوْلِهِ: مِنْ هادٍ مُبَيِّنَةً أَنَّ قَسَاوَةَ قُلُوبِ الضَّالِّينَ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ إِنَّمَا هِيَ لِرَيْنٍ فِي قُلُوبِهِمْ وَعُقُولِهِمْ لَا لِنَقْصٍ فِي هِدَايَتِهِ. وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [2]: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ [الْبَقَرَة: 6- 7] ." (محمد الطاهر بن عاشور ، 1984، 23، 384).

والتأثير الوجداني النفسي نجده أكثر ظهورا في قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى

الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة:83)، (تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ)، (التوبة 92) هذا التأثير" الذي يلمس الوجدان، ويحرك المشاعر، وبفيض الدمع، يسمعه الذين تهيؤوا للإيمان، فيسارعون إليه خاشعين، ويسمعه الذين يستكبرون عن الإذعان، فيقولون:(إن هذا إلا سحر مبين)، (صافات 15) أو يقولون: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)، (فصلت 26) فيقرون بالإعجاز الغلاب من حيث لا يشعرون أو يشعرون" (انظر: سيد قطب ، 2004، 16. وانظر: عبد الله ناصح علوان ، 1992، 50-54-125-126.).

كما أشار الخطاب القرآني إلى الحقيقة الصريحة الواضحة في أصل التغيير الحقيقي، ألا وهي النفس. يقول الله سبحانه وتعالى معلما للبشرية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:53)، ليوضح لهم ويفسر لهم أسباب ما حلّ بهم، "حين يلحّ في إظهار: ان مرد المشكلة، إلى ما بالنفس، وليس من الظلم الذي يحيق بالإنسان من الخارج، بل، من الظلم الذي ينزله الإنسان بنفسه. هذا هو لبُّ التاريخ، وسنة الاجتماع، الذي يقرره القرآن، وبإغفاله تظلم الحياة، وتنشأ الفلسفات المتشائمة الخانعة، أو الفلسفات المتسلطة المارقة. ومن أكبر الظلم الذي ينزله الإنسان بنفسه، أن لا يرى العلاقة التسخيرية، الموجودة بين الإنسان والكون والمجتمع (الآفاق والأنفس)، فيهمل نفسه، ولا يضعها في المكان الذي يسخر الآفاق والأنفس على أساس السنن المودعة فيهما، وبناء على هذا يمكن أن نقول: (حتى يغيروا ما بأنفسهم)"(أنظر ، جودت السعيد ، 1989، 15. وانظر: محمد عكاشة ،2013، 240-280-281.). وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:13)، خطاب صريح لآلية التغيير. ومن جهة ثانية نلمح أن الدعوات التي تركت أثرها العميق في تاريخ البشرية، إنما بدأت تأثيرها على نفس الإنسان وفكره فغيرتهما، وكان هذا هو أحد أدواتها الفتاكة حقيقة، وما يزال حتى الآن. فالتغير يخضع لقوانين وقواعد هي سنن الله سبحانه في النفس والمجتمع، فأما أن يستفيد المجتمع من هذه السنن ويرتقي بها، أو أن يهملها ويتخلف عنها (انظر: محمد عكاشة ،2013، 221.) ، ليعيش في جاهلية مطبقة ظالمة.

فقوله تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، (أنفال 53)"وَالْإِشَارَةُ تُفِيدُ الْعِنَايَةَ بِالْمُخْبَرِ عَنْهُ، وَبِالْخَبَرِ. وَالتَّسْبِيبُ يَقْتَضِي أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا فِي نِعْمَةٍ فَغَيَّرَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالنِّقْمَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ جَرَى عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَسْلُبُ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ذَلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ... فَقَوْلُهُ: لَمْ يَكُ مُغَيِّراً مُؤْذِنٌ بِأَنَّهُ سُنَّةُ اللَّهِ وَمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ، لِأَنَّ نَفْيَ الْكَوْنِ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ يَقْتَضِي تَجَدُّدَ النَّفْيِ ومنفيّه.

و «التَّغْيِير» تَبْدِيلُ شَيْءٍ بِمَا يُضَادُّهُ فَقَدْ يَكُونُ تَبْدِيلَ صُورَةِ جِسْمٍ كَمَا يُقَالُ: غَيَّرْتُ دَارِي، وَيَكُونُ تَغْيِيرَ حَالٍ وَصِفَةٍ وَمِنْهُ تَغْيِيرُ الشَّيْبِ أَيْ صِبَاغُهُ، وَكَأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْغَيْرِ وَهُوَ

الْمُخَالِفُ، فَتَغْيِيرُ النِّعْمَةِ إِبْدَالُهَا بِضِدِّهَا وَهُوَ النِّقْمَةُ وَسُوءُ الْحَالِ، أَيْ تَبْدِيلُ حَالَةٍ حَسَنَةٍ بِحَالَةٍ سَيِّئَةٍ... وَمَا بِأَنْفُسِهِمْ مَوْصُولٌ وَصِلَةٌ، وَالْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، أَيْ مَا اسْتَقَرَّ وَعَلِقَ بهم. وَمَا صدق مَا النِّعْمَةُ الَّتِي أنعم الله عَلَيْهِمْ كَمَا يُؤْذِنُ بِهِ قَوْلُهُ: مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ وَالْمُرَادُ بِهَذَا التَّغْيِيرِ تَغْيِيرُ سَبَبِهِ. وَهُوَ الشُّكْرُ بِأَنْ يُبَدِّلُوهُ بِالْكُفْرَانِ" (محمد الطاهر بن بن عاشور ، 1984، 10، 45).

فالخطاب القرآني "من جانب، يقرر عدل الله في معاملة العباد؛ فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم، ويبدلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها . . ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله؛ ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم، وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم . . ومن الجانب الثالث يلقي تبعة عظيمة - تقابل التكريم العظيم - على هذا الكائن . فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه" (سيد قطب، 2003 ، 2، 153) "ويملك أن يزاد عليها، إذا هو عرف فشكر؛ كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر، وانحرفت نواياه فانحرفت خطاه .

وهذه الحقيقة الكبيرة تمثل جانباً من جوانب « التصور الإسلامي لحقيقة الإنسان »؛ وعلاقة قدر الله به في هذا الوجود؛ وعلاقته هو بهذا الكون وما يجري فيه ...

كذلك تصور هذه الحقيقة ذلك التلازم بين العمل والجزاء في حياة هذا الكائن ونشاطه؛ وتصور عدل الله المطلق، في جعل هذا التلازم سنة من سننه يجري بها قدره، ولا يظلم فيها عبد من عبيده ."(سيد قطب، 2003 ، 2، 153).

ومن الخطاب النفسي النبوي الفائق ما جاء "عن أبي أمامة أن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: يا رسول الله أتأذن لي في الزنا: فصاح القوم به و قالوا: مه مه فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أقروه وادنه فدنا حتى كان قريبا من رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أتحبه لأمك فقال: لا يا رسول الله جعلني فداك فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أتحبه لأمك فقال: لا يا رسول الله جعلني فداك فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: و لا الناس يحبونه لأمهاتهم قال: أفتحبه لا بنتك قال: لا و الله يا رسول الله جعلني الله فداك قال: و لا الناس يحبونه لبناتهم قال: فتحبه لأختك قال: لا و الله يا رسول الله جعلني الله فداك قال: و لا الناس يحبونه لأخواتهم ثم ذكر الحديث في العمة و الخالة كذلك قال: يا رسول الله ادع الله لي قال: فوضع رسول الله صلى الله عليه و سلم يده عليه ثم قال: اللهم اغفر ذنبه و طهر قلبه و حصن فرجه قال:

فكان لا يلتفت إلى شيء بعد"(أنظر ، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، 1410، 4، 362، رقم: 5415. وانظر:أيضا جنان محمد مهدي ، 2013، ص247).

إن القارئ المتأمل لهذا الحديث الشريف، والناظر لخطاب النبي صلى الله عليه وسلم، ليدرك أنه أمام هامة عالية، وشخصية فريدة، ذات نظر ثاقب، وبعد نظر، وإنسانية رحيمة، لا ينطق عن هواه في شيء.

هذا الشاب الذي ملأ الإسلام جوانب حياته كلها، لكن يقي ثغرة واحد لم تسد بعد، إنها تلك الشهوة والرغبة في الزنا، تلك الشهوة المتقدة التي لا يطفئها إلى الإيمان الحقيقي،

فهذا الخطاب النبوي يمثل أرقى وأعلى شفافية عرفتها البشرية، وهو ارقى خطاب منطقي يحاكي العقل، وفوق هذا كله استطاع هذا الخطاب ان يتغلغل في نفس المخاطَب (الشاب) ويبحث عن تلك القيم المغروسة في نفس الشاب ويحركها لمعالجة تلك الشهوة التي تقودها النفس الامارة بالسوء، وتدفعه لها دفعا، وتحثه على إشباعها. فحرك النبي تلك القيم وخاصة النخوة الفطرية والإنسانية في نفس الشاب، محاولا من خلال هذا التسلسل المنطقي النفسي في الحوار أن يعزز قيمة النخوة والحفاظ على العِرض، أن يمحو تلك الفكرة ويقضي على تلك الشهوة.

وخطاب النبي ﷺ لم يبدأ بتحريم ذلك الطلب ولم يذكر التحريم أبدا، بل وجهه التوجيه السليم دون أوامر، مع ان النبي لو امره مباشرة فسيستجيب لا محالة، لكن النبي أراد ان يعطينا نموذجا في الخطاب النفسي المؤثر، الذي يصيب الهدف ولا يخطئه أبدا، ألا وهو قراءة الأخر (المخاطَب)، ومعرفة ميوله ورغباته ودوافعه، ولم يكبتها أبدا بل وجهها ورباها، كما دعانا إلى فهم المرحلة العمرية وخصائصها، وطرق الوصول إليها من خلال معرفة المفاتيح لتلك النفوس.

ولعل الاصغاء للآخر هو أول خطوات تفريغ الشحنة العارمة الهائجة، ثم يأتي دور المربي في استخدام الخطاب المناسب، في الزمن المناسب، بالألفاظ المناسبة، بالطريقة المناسبة، لذلك جاء أسلوب النبي ﷺ استفهاميا، باحثا عن قيم الشاب وأفكاره، لينفذ من خلالها إلى المحرك الرئيسي في نفس الشاب، ليستخدمه في علاج تلك الظاهرة.

ولم يقف النبي ﷺ عند حدود الحوار بصيغة السؤال، بل احترمه ولم يسمح للمجتمع أن ينهره أو يزجره عن قوله وطلبه، بل احترم النبي الكريم الرحيم شخصيته وإنسانيته وصدق طلبه، فلم ينهره هو أيضا، بل كان كالأم التي احتضنت ولدها الثائر الهائج لتهدئه وتلجم اندفاعه وتربيه.

ولعل ردة فعل الصحابة رضوان الله عليهم، هي ردت فطرية طبيعية للبشر والمجتمع المحيط المحافظ، وهي تعبير صادق وفطري عن النخوة والرجولة، وهذا موجود في كل مجتمع نظيف.

لكن المجتمع النظيف الذي بناه النبي ﷺ، مجتمع شفاف لا مكان فيه للنفاق ولا الرياء، ولن تجد للتملق فيه نصيباً، وهو مجتمع فريد صاحبَ نبوة فريدة.

وفي حديث "عَنْ أَبِي ذَرّ - رضي الله عنه - عَنْ النَّبِيّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ منكم مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ عز وجل وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ" قَالَ سَعِيدٌ كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ."(أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني ، 1987، 2، 483، رقم 1828).

عند قراءتنا لهذا الخطاب القدسي قراءة متأنية، سنجد أن إضافة الله للمخاطبين إلى نفسه سبحانه وتعالى، من خلال مناداتهم بـ (يا عبادي)، هذا النداء الذي فيه من التحبب من الله لخلقه يجعل النفس المقبلة تزيد في إقبالها، وكذلك النفس المحجمة عن الإيمان، بمجرد اصغائها ستتأثر وتصغي لهذا النداء، هذا النداء الذي يدخل للقلوب محاكيا النفس من قريب، فهذا الخطاب بكل مضامينه يبعث في النفس الراحة والاستقرار والاتزان، وذلك بمجرد جعل القلب يصغي لهذا النداء الخالد.

من خصائص الخطاب النفسي في القرآن الكريم والحديث الشريف

يمكننا أن نذكر بعض تلك الخصائص على النحو الآتي:

1- الخطاب النفسي الفائق في القرآن الكريم والحديث الشريف، خطابان اجتمعت لهما كل مقومات الخطاب المتصور والمتخيل، وذلك في أدق تفاصيله، و بأبلغ بيان عرفته البشرية.

2- الخطاب النفسي في القرآن الكريم والحديث الشريف، هو نموذج راقي ومثالي لأي تجربة بشرية تحاول الارتقاء والتطور على كل الأصعدة.

3- الخطاب النفسي في القرآن الكريم والحديث الشريف، فيه من الجوانب الإنسانية ما لا يمكن احصاؤه في هذه الوريقات، فقد اهتم بالإنسان قبل ولادته وحتى بعد مماته.

4- لا يمكن للبشرية أن تسعد في حياتها بعيدا عن هذا المنهج الإلهي في خطاب النفس، وببعدها عنه، تكون قد حكمت على نفسها بالموت والحياة الضنك، وخاصة عند ركونها للقوانين الوضعية. فهي في حالة عوز حقيقي له.

5- الخطاب النفسي الفائق في القرآن الكريم والحديث الشريف، هو خطاب لا يحده زمن الأشخاص المخاطبين أو شخصيتهم، بل هو خطاب مستمر مستقبلي ممتد إلى كل نموذج بشري قادم، فهو قالب يستوعب كل النماذج البشرية القادمة، وهذا من أسرار الإعجاز في القرآن والسنة.

6- اللغة العربية كانت الحامل العملاق والأمين لتلك المعاني المرادة من الخطاب النفسي الفائق، وهذا ما لا نجده في لغة أخرى أبدا.

خاتمة

وهكذا نلاحظ أن الخطاب النفسي الفائق في القرآن الكريم والحديث الشريف، قد خاطبا النفس البشرية خطابا لا يمكن لبشر مهما أوتي من العلم والمعرفة، أن يحيط بكل جوانب هذا الخطاب الشامل الكامل المتكامل المتوازن، فهو بخطابه لها لم يهمل الجوانب الأخرى، أو ينساها، بل راعى كل الاحتمالات الممكنة الأخرى، كما وجدنا أنه قد اختار اللفظة المناسب باعتباره الوعاء الحاوي للمعنى المراد، فأحكم نظمه في سياقه الخاص بالآية الكريمة، وسياقه العام ضمن القرآن الكريم، وكذلك الأمر في الحديث الشريف، فقد راعى السياق الخاص بالحديث، والسياق العام للمنهج الإسلامي العام، وكلاهما (القرآن الكريم والحديث الشريف) قد اعتنى بالظروف المحيطة بتلك النفس البشرية، دون إهمال أو تشديد أو تضييق أو إكراه، فقد حملا في طياتهما العلاج والتربية لها، ورسما لها طريقها عبر هذه الحياة للوصول إلى الآخرة بسلام.

وهذه النماذج التي عرضها البحث هي عبارة عن فيض من غيض، وقطرات من محيط، لم يستطع البحث أن يعطي نماذج أكثر لضيق المقام وعظم الموضوع، فهو بحث جدير بأن تفرد له دراسات أكاديمية متخصصة، للكشف عن أسراره، والاستفادة من توجيهاته، بما يصلح حالنا.

KAYNAKÇA

Abdulazim b. abdulkavi b. Abdullah Ebu Muhammed Zekiyyüddin el-Münzirî. (1987). Muhtasaru Sahihi Müslim (el-İmam ebü'l-Hüseyin Müslim b. Haccac el-Kuşayrî en-Nisaburî) tahkik: Muhammed Nasirüddin el-Elb3anî 6. T, el-Mektebü'l-İslamiyyu, Beyrut.

Abdullah Nasih Ulvân. (1992). Terbiyyetü'l-Evlâdi fi'l-İslam, 21. T, Darü's-Selami li't-Tab'i ve'n-Neşr.

Abdusselam Ahmed er-Râğıb. (2001). Vazifetü's-Sureti'l-Feniyyeti fi'l-Kur'an, 1. T, Füssilet li'd-Dirâsâti ve't-Tercemeti ve'n-Neşr, Haleb.

Abdusselam Ahmed er-rağıb. (2017). et-Ta'rifu bi'l-İslam el-Mefhumu ve'l-Menhec, 1. T, Darü'l-Fürkân li'l-Lüğati.

Ahmed b. Hüseyin b. Ali b. Musa el-Husrevcirdî el-Hurâsânî, Ebu bekr el-Beyhakî. (1988). Allaka aleyhi ebu Abdullah es-Said el-Menduh, el-Âdâbu li'l-Beyhakî, Müessesetü'l-Kütübi's-Sakafiyyeti, 1. T, Beyrut.

Ahmed Muhtar Abdulhamid Ömer. (2008). Mu'cemü'l-Luğati'l-Arabiyyeti el-Mu'asira, 1. T, Alemü'l-Kütüb.

Alaüddin Musa İbrahim ebu Mustafa. (2009). Maalimü't-Terbiyyeti'l-Vicdâniyyeti fi'l-Kur'ani'l-Kerimi ve's-Sünneti'n-Nebeviyyeti, Risaletü Macister, el-Camiatü'l-İslamiyye, Ğazza.

Ali Hüseyin Fehd Ğâdib. (1412). el-Mefâhimü't-Terbeviyyetu İnde'l-İmâm Fahrüddin er-Râzî Min Hilâli Kitâbihi et-Tefsirü'l-Kebir el-Müsemmâ bi- Mefâtihü'l-Ğayb, Risaletu Macister, Camiatu Ümmi'l-Kürâ, Mekke.

Cevdet es-Said, Hatta Yuğayyirû mâ bi-Enfusihim, 8. T, Beyrut, 1989.

Cinan Muhammed Mehdî el-Ukaydî. (2003). Lüğatü'l-Hikmeti ve İknaü'l-Muhatabi fî- Uslubi'l-Hitabi'n-Nebeviyyi, Camiatu Bağdat, Külliyyetü't-Terbiyyeti li'l-Benat, Kısmü'l-Lüğati'l-Arabiyyeti, el-Adedü'l-Has 2, es-Senetü's-saniyye.

Ebu Abdullah Muhammed b. Ömer b. Hasan b. Hüseyin et-Teymî er-Râzî el-mulakkab bi-Fahrüddin er-Râzî Hatibü'r-Rey. (1420). Mefatihü'l-Ğayb (et-Tefsirü'l-Kebir) Daru İhyai't-Türasi'l-Arabiyyi, 3. T, Beyrut.

Ebu Abdurrahman Muhammed Nasirüddin el-Elbânî. (2002). Muhtasaru Sahihi'l-İmam el-Buhârî, Mektebetü'l-Ma'ârifi li'n-Neşri ve't-Tevzi' 1. T, Riyad.

Ebu bekir Ahmed b. Hüseyin el-Beyhakî. (1420). Şu'abü'l-İmân, tahkik: Muhammed es-Said Bisyûnî Zağlûl, Darü'l-Kütübi'l-İlmiyye, 1. T, Beyrut.

Ebü'l-Kasım Mahmud b. Ömer b. Ahmed ez_zemahşerî, (1998) Esasü'l-Belağeti, Darül'l-Kütübi'l-İlmiyyeti, Beyrut.

Eyyub b. Musa el-Hüseynî el-Kureymî el-Kefevî ebü'l-Bekâ el-Hanefî. (1999). el-Külliyât Mucemün fi'l-Müstalahati ve'l-Fürûki'l-Luğaviyyeti, Tahkik: Adnan Derviş ve Muhammed el-Mısrî, Müessesetü'r-Risale, Beyrut.

Ezhâr Yahya Kasım ve Ahmed Amir Sultan. (2008.). el-Emnü'n-Nefsî Ledâ Talibati Külliyeti't-Terbiyyeti li'l-Benati fî-Davi'l-Kur'ani'l-Kerim, Mecelletü Ebhâsi Külliyeti't-Terbiyyeti'l-Esasiyyeti, Camiatu Musul, mücelled 8, el-Aded: 1.

Faysal Ğazî Muhammed. (2012). el-Ferku Beyne'n-Nefsi ve'r-Ruhi, Camiatu Bağdad, Külliyyetü'l-Ulûm.

Heysem Hilal. (2003). Mu'cemu Mustalahi'l-Usul, 1. T, Darü'l-Ceyl, Beyrut.

Lütfî Fikrî Muhammed el-Cevdet. (2014). Cemaliyatü'l-Hitabi Fi'n-Nassi'l-Kur'aniyyi, 1. T, Müessesetü'l-Muhtar li'n-Neşri ve't-Tevzi'.

Mevkiu (Merkezu İş'âi'l-İslamî li'd-Dirâsâti ve'l-Buhusi'l-İslamiyye) https://www.islam4u.com

Muhammed b. Ebubekr b. Eyyub b. Said Şemsüddin İbnülkayyım el-Cevzî. (2000). er-Ruhu fi'l-Kelami Ala-Arvahi'l-Emvati ve'l-Ahyai bi'd-Delaili Mine'l-Kitabi ve's-Sünneti, Darü'l-Kütübi'l-İlmiyyeti, Beyrut.

Muhammed -el-Ğazalî. (2005). Nazaratün fi'l-Kur'an, 6. T, Nahdatu Mısır.

Muhammed et-Tahir b. Muhammed et-Tahir b. Aşûr et-Tunusî. (1984). et-Tahriru ve't-Tenvîr (Tahrirü'l-Mana's-Sadid ve Tenvîrü'l-Akli'l-Cedîd Min Tefsiri'l-Kitabi'l-Mecid) ed-Dârü't-Tunusiyyetu li'n-Neşri ve't-Tevzi' Tunus.

Muhammed Ukkâşe. (2013). Tahlilü'l-Hitabi Fî-Dav'i Nazariyyeti Ahdasi'l-Luğati Diraseten Tatbikiyyeten Li-Asalibi't-Te'sîri ve'l-İknâi'l-Hücâciyyi Fi'l-Hitabi'n-Neseviyyi Fi'l-Kur'ani'l-Kerim, 1. T, Darü'n-Neşri li'l-Camiât, Kahire.

Mustafa Sadik er-Râfiî. (1973). İ'câzü'l-Kur'ani ve'l-Belğatün'Nebeviyyetu, 9. T, Darü'l-Kütübi'l-Arabiyyeti, Beyrut.

Salih Ahmed eş-Şamî. (1988). et-Terbiyyetü'l-Cemaliyyetu Fi'l-İslam, 1. T, el-Mektetü'l-İslamiyye.

Seyyid Kutub. (2004). et-Tasvîrü'l-Feniyyu Fi'l-Kur'ani'l-Kerim, Darü'ş-Şürûk, 17. T.

Seyyid Kutub. (2003). Fî Zilâli'l-Kur'an, Darü'ş-Şürûk, 32. T.

Zeyneb Beşşâre Yusuf. (1432). Min-Asalibi't-Terbiyyeti Fi'l-Kur'ani'l-Kerim, Risaletu Macister, Camiatü'l-Medine el-Alemiyye.